

قصص مسيحية من واقع الحياة

مغتصبو الملكوت

١٦

دار مجلة مرقس

الأب أليكساندر(*)

(عن قصص رواها شهود عيان)

□✲●✲□

قال سيرج Serge وهو يطوي صحيفته اليومية:

هناك تباين واضح بين وجهة نظركم نحو المجرمين ونظرتنا نحن إليهم. فحكمكم أنتم في الغرب على مثل هؤلاء يصدر متأثراً بمعيار القانون الروماني. فالمدينة تحذف فاعل الشر من عداد أحيائها وكأنه حُكِمَ عليه بالموت البطيء في غياهب السجون التي تتصف بكل ما يؤدي إلى القضاء على الحياة البشرية.

هذا الموقف من وجهة نظر إجتماعية مقبول شرعاً: فالمجذومون ينبغي أن يُعْزَلوا في مصحة خاصة بهم وقاية للأصحاء. أما عندنا نحن (كمسيحيين شرقيين) فمرتكب الجريمة هو قبل كل شيءٍ إنسانٌ خاطىء بائس قد تعدى الوصايا المقدسة (في الخفاء) قبل أن يرتكب (علانية) ما هو ضد للشرائع المدنية. ومع هذا ينبغي أن نعامله باحترام، لأنه يحمل صورة «البار» الذي صار خطية من أجلنا وحُكِمَ عليه بالقتل كأثيم...

ينبغي أن نُفرِّق بين الخطية والخاطىء ــ كما يقول القديس أغسطينوس ــ

(*) عن كتاب: LES VOLEURS DE DIEU «لصوص الله».
Neuvième édition, EDITIONS SAINT PAUL. PARIS-FRIBOURG.
تأليف: ماريا فينوفسكا MARIA WINOWSKA.

فـأسوأ المجـرمين لا يمـكـن أن تُعْرَف شخصيته الحقيقية من جرائمه مهما فدحت. ونـفـسه الثمينة المخلوقة على صورة الله والتي هي بمنأى عن تصرفاته اللاواعية (لأن الخـطيئة خروج عن الوعي الروحي والإنساني) تظل جديرة بالحب الإلهي. والرب غـالباً ما يفتقد الخاطىء في أشد تعدياته جرماً؛ فتضحى خطيئته سبيلاً لمعرفة عميقة لله ولـتـوبة جادة لا رجعة فيها. وربما شاول لم يكن ليتحول إلى بولس لولا جمرة نار المـغـفـرة الـتـي طـلـبـهـا لـه الشاب الذي رُجِم بموافقته ــ هذه التي أتت على رأسه و بـدأت تـوقـظ ضـميره! فالقديس الشهيد إستفانوس هو الذي مهّد لشاول الطريق إلى دمشق... يجب أن نعرف أن الله الكلي القدرة يتفحص الكُلى والقلوب...

المجـرم والـقديس مشتركان في أنهما لم يكونا من النوعية الفاترة التي يتقيأها الـرب مـن فـمـه. فـهـا لص قاتل يمنحه الرب الخلاص في ساعة إعدامه ويقول له: «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس». مَن استطاع أن يفوز بمثل هذا اليـقين على مـدى الـتـاريـخ؟ لذا تبجِّل كنائسنا الشرقية هذا الحَدَث النادر الذي جـرى مـع اللـص اليمين؛ بل وتجعل منه قديساً شفيعاً عن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، ومَن أُدينوا بالإعدام (عسى يجدون فرصة للتوبة قبل نهايتهم المحتومة).

إن المسيحية تبدو مجموعة متآلفة من المتناقضات، وسيبقى الصليب دائماً عثرة (أمـام المنطق البشري)!... ومغامرة اللص اليمين ستظل لغزاً محيِّراً ومتحدياً للعقل. ولـكـن لـكـي نـعـرف حقيقة شيء لا ينبغي أن نحكم عليه بحسب الظاهر أو طبقاً لمـجـرد رؤيـة شهود العيان من الخارج؛ بل أن نتعمقه ونختبره بأنفسنا من الداخل. فبعض الحقائق لا يصلح أن تُقال من نافذة الباب، ولكي نتعرف على بواطن الأمور عـنـد السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، ينبغي أحياناً أن نشاطرهم نصيبهم العاثر ولو بعض الوقت.

ولنأخذ مثالاً لهذا:

الأب أليكساندر Alexandre كان هو أيضاً لصاً يمينياً جديداً، فقد كانت حياته (قبل دخوله السجن) لا تليق به أبداً ككاهن فيما بعد. ولكني رأيته بعينيَّ يصعد إلى أعلى قمم البطولة الإيمانية والقداسة، وقد مات شاهداً لإيمانه المسيحي على أفضل ما تكون الشهادة الحقيقية والاستشهاد.

ــ نعم لقد كنت من القِلَّة النادرة التي نَجَتْ من معتقل تروبيتسكوي Troubetzkoy حيث كنا نتكدس في غرف السجون بالمئات كالبهائم. وفي الغرفة التي كنتُ بها لم نكن لنقدر حتى أن نقعد على الأرض كلنا في وقتٍ واحد، فكنا نجلس القرفصاء كلٌّ بدوره في الماء المُنتن...

كنا نظل واقفين ٤٨ ساعة متواصلة، ولكن كان لطاقاتنا حدود، فإذ كنت أستند على عكازيَّ من شدة التعب. كنت أنهار أخيراً وأقع كالآخرين في بحر من الوحل العفن...

كان كل غذائنا هو الماء، وكل يومين نُعْطَى رنجة مملحة، الأمر الذي كان يجعل أمعاءنا تتلوى من الألم. ولم يكن يقدَّم لنا خبزٌ البتة. وقد حصل أن قضينا خمسة أيام دون أن نتناول أي شيء لنأكله.

كانت كل الليالي يجري فيها تنفيذ حكم الإعدام. فكانوا يذهبون بنا إلى ساحة السجن حيث يوقفوننا صفاً واحداً، ويُرْمى بالرصاص كلُّ ثالثٍ أو رابعٍ بحسب أوامر التنفيذ. وعندما كنا نسمع الباب يُفتح لم نكن نعلم على مَن سيأتي الدور ليلاقي مصيره الأخير. بقينا على هذه الحال عدة أسابيع... ولكي يموّهوا على صوت الطلقات النارية، كانوا يديرون عربات بمحركات قويّة ويجعلونها تسير

بعض الوقت في الساحة ساعة الإعدام، لكي يهوّنوا الأمر أيضاً على السكان المدنيين المحيطين بالمكان وبالتالي على الرأي العام... ولكن الشعب لم يكن أبلهاً. فكانوا بمجرد أن يسمعوا أصوات المحركات الكبيرة تطن، كانت المدينة كلها ترفع صلاة من أجل المشرفين على الموت.

كنا نحفر مقابرنا بأنفسنا؛ وكانوا يوقفوننا بالترتيب. ومَن يأتي عليهم الدور كانوا ينقلبون على ظهورهم في حفرةٍ مغطاة بطبقة رقيقة من التراب في انتظار مددٍ جديد بعد أربع وعشرين ساعة.

وكان من بيننا الأب أليكساندر...

ـ هذا الأب تعرَّض لسُمْعة سيئة في بلده وبين معارفه. وككل كهنتنا (الأرثوذكس) المسئولين عن رعاية الشعب كان متزوجاً ومسئولاً عن أسرةٍ عديدة الأفراد. كان يستخدم كافة الطرق المباحة وغير المباحة ليؤمِّن معيشة أولاده، وهروباً من مجابهة الواقع المؤلم بدأ يُفرط في الشرب. وكثيراً ما وُجد في الصباح الباكر مطروحاً في أحد الأماكن فاقد الوعي من شدة السُّكر... كان هذا عاراً لأهله وعثرة لكل المنطقة المحيطة...

عندما رأيته فجأة مُلْقى على الأرض كجثة هامدة في غرفة السجن التي كنت بها، صُعِقت واغتم قلبي بشدة. كنا كلُّنا ضباطاً والبعض من قادة الحرس...

وسرعان ما لمحنا أنه في حالة يُرثى لها. فقد نتفت نصف لحيته، وكل أسفل وجهه كان ينزف. وملابسه ممزقة خِرَقاً، وملطخة بالدم. وإذ جلس هذا البائس القرفصاء منزوياً في ناحية كان يلهث منتحباً...

ـ تأملته من بعيد فوجدته قابعاً في مكانه منطوياً على نفسه، وجهه بين يديه ولا يتحرك. نحو المساء، وبعد توزيع السمك المملح المُقَدد، بدأ يقف أخيراً، ولشدة دهشتنا: إن هذا الذي شاهدناه منذ قليل في هيئته البشعة وشكله المشوه المغطى بالدم المتجمد نراه يقترب منا ويقول:

ـ «يا إخوتي دعونا نصلي من أجل الذين يضطهدوننا». وأخذ يتلو بتأنٍّ ووقار «الصلاة الربانية»، مُلِحّاً في التوسُّل بشدة على مقطع: «واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا».

وبالرغم من قلة إيماننا، فقد وجدنا أنفسنا جميعاً نكنُّ لهذا الكاهن كل احترام حتى إنه ولا واحد منا تجاسر على أن يعترض. وتدريجياً أخذ الكل يشتركون في الصلاة. أما من جهتي فقد اندهلت بشدة، لأنني الوحيد من كل رفقائي الذي كنت أعرف جيداً الماضي المحزن لهذا الإنسان البائس الذي كان معروفاً في كل المقاطعة التي كان يعيش فيها.

اقتادوه صباح اليوم التالي ليوقفوه مرة أخرى أمام محكمة الثورة. رجع بعدها متغير الملامح. وبالجهد كان يكاد أن يُعرف، فوجهه أيضاً كان أكثر تورماً ومُغطى بالكدمات، وثيابه كانت ممزقة خرقاً وكان يُرَى منها جسده النحيل مملوءاً بالجروح السخينة. ولكن مع كل هذا، ومما زاد تعجُّبنا جداً أنه لم يشتكِ ولم يتوجع رغم كل ما أصابه! وإذ زُجَّ به بقسوة في غرفة السجن، أخذ يتقدم بصعوبة إلى الركن الذي كنا قد حفظناه له. اقتربت منه متسائلاً: «لماذا أيها الأب ينكِّلون بك هكذا؟ فلا أنت من أصحاب السوابق الخطرين، ولا أنت من القادة المقاومين. فماذا وجدوا عليك»؟

ولا أنسى أبداً نبرات صوته وهو يجيبني قائلاً: «لأنني كاهن».
ــ منذ هذه الآونة بدأت تحدوني الرغبة أن أتتبع أخباره بأكثر تفصيل. ولكن ما كان يدهشني فيه على وجه أخص، هو أنه لم ينطق البتة بكلمة سوء على أولئك الذين كانوا يسيئون إليه بقسوة لا تعرف الرحمة؛ بل على النقيض، رأيناه يدعونا كل مساء لكي نصلي من أجلهم. كان البعض يضطرب قلبهم ولا يمكنهم أن يتمالكوا أنفسهم لهذه المفاجأة غير المتوقعة. وآخرون كانوا يلبُّون دعوته بكل رضى، ولكن ولا واحد كان يحتج على طلبه العجيب هذا.

وعندما عاد في اليوم التالي أيضاً أشد تشوهاً وفي حالة يُرثى لها جداً، لم أقدر أن أمنع نفسي من التساؤل مرة أخرى:
ــ إنهم يشدّدون عليك النكير لأنك كاهن... ولكن ماذا يريدون منك أن تفعل؟
ــ قال مبتسماً: أوه! ليس هو أمراً كبيراً. فإنهم في كل مرةٍ يستدعونني، يطلبون مني نفس الشيء؛ فأجيبهم بهذا الرد: «لا، لا، لا». فَمِن ثَمَّ يعيدون الكرَّة من جديد ويوسعونني ضرباً على قدر ما شاءوا.
ــ وما هو هذا الأمر الذي يطلبونه منك؟
ــ يقولون لي: أَقِرَّ واعترف بأن المسيحية والشيوعية هما شيء واحد. ألم يكن المسيح صديقاً للفقراء؟ فماذا نعمل نحن، إلا أننا نوزع أملاك الأغنياء على الفقراء؟ فإننا بهذا نسلك وفقاً لمبادىء الإنجيل. فما هو ردُّك على أمرنا هذا؟

«وأنت تعلم يا سيرجي فاسيليفيتش أنني لست على درجة من الثقافة تمكنني من أن أتناقش مع هؤلاء الأذكياء الماكرين. ولهذا أُجيبهم دائماً نفس الرد: لا، الشيوعية والمسيحية ليسا هما شيئاً واحداً. لأن المسيح يقول: "اعطِ" وأنتم تقولون:

"خُذْ"! وحينئذٍ يهددونني باللطم المبرح والجلد مرة أخرى ثم يعيدون عليَّ الأمر من جديد: "قُلْ فقط: إن الشيوعية والمسيحية هما شيء واحد، ونحن نُخلي سبيلك". فأجيبهم أيضاً: "لا يمكنني أن أخالف روحي وضميري وأخون الإنجيل على أي حال مهما كان التهديد"» !

وهكذا كان يعود إلينا الأب أليكساندر (إلى غرفة السجن) بعد كل مرة يستدعونه للإستجواب وهو أكثر تنكيلاً به. ولكنه كان دائماً يثبت أنه كاهن بحق... فخضعنا كُلُّنا لسمو روحه وكنا جميعاً نصلي معه... وعندما كان ضجيج المحركات يُدَوي في ساحة الإعدام، كان يتلو الصلوات من أجل المقبلين على الموت ويبارك علينا جميعاً على حدٍّ سواء وبلا أي تفرقة: على الضحايا وعلى معذبيهم وقاتليهم.

كان الهلع يملأنا، ولكننا تمسكنا بالصبر حتى النهاية. كان اليأس يسري في نفوسنا كفعل السم البطيء. وفي إحدى الأمسيات، وعندما بدأ البعض يهذون ويجدفون على الله أنه العِلَّة لكل هذه المتاعب، وقف فجأة وأسكتهم بلهجة قوية لا تُقهر؛ ولن أنسى أبداً كيف انقلب، وفي الحال، شكله البائس الموجب الشفقة إلى مسحة عجيبة من الجلال، كان يبدو لي فيها أنه في حالةٍ من التجلي! ومن ثَمَّ أخذ يستهل الصلاة الربانية بصوت قوي للغاية كان يُدَوي في السجن كله وقت المساء كما لو كان نشيداً وطنياً تنشده فرقة كبيرة من الجيش. وضممنا جميعاً أصواتنا إليه بروح معنوية هائلة وبشجاعة فائقة، فارتفعت نغمة الصلاة بقوة أكثر، وفي التو التحق بنا نزلاء من بعض الغرف الأخرى في حماس شديد لا يمكن حبسه. وفجأة رأينا أيضاً الحراس يجرون إلينا مثل مَن فقدوا وعيهم وأعيتهم الحيلة ماذا يفعلون معنا؟ كانت قباب قلعة المعتقل تطن برنين الترنم كما لو كنا في كاتدرائية كبرى.

وأخـذت آلاف الأصوات تنطلق من الغرف الكبيرة واحدة بعد الأخرى مشتركة في الإنـشـاد، بـأقصى مـا يمـكـن أن يـعـبِّـر به شعب مكتوم ومغلوب على أمره عن إيمانه ورجائه الحي...

وكـان حينما وصلنا (في الصلاة الربانية) إلى طلب الغفران الذي لا يمنحه الله إلا للـذيـن يـغـفرون بدورهم للآخرين، حدث أمرٌ لا يمكن أن يتوقعه أحدٌ على وجه الإطـلاق: فـقـد تـوقف الحراس فجأة في مكانهم متجمدين ومذهولين وبكل هدوء ووقار رفعوا قبعاتهم ولم يتحركوا حتى نهاية الصلاة؛ ففي لحظات قليلة قد استطاع الأب أليكساندر (بتوسلاته) أن يغيِّر قلوب حتى الجبابرة المتولين تعذيبنا!

بـعـد بـضـعة أيام بلغ إلى عِلْمه أن ابنه ميخا قد أُعْدِم رمياً بالرصاص. فارتجف كـمـا مـن صـدمـة مـبـاغـتـة ثم سأل: «هل مات مسيحياً»؟ أجاب شاهد عيان: «نـعم، وقد رشم نفسه قبلها بعلامة الصليب». فقال هذا الأب التقي: «نِعْمَ هذا الختام، يقيناً سأجده أمامي هناك في السماء».

مـنذ هذا الوقت بدأنا نشتاق إلى صحبته، ونتكلم معه بمنتهى الود والإخلاص. أمـا هـو فـلم يحدثنا بشيء يفوق إدراكنا أو قدراتنا. فمعرفته اللاهوتية كانت ضئيلة جـداً، ولـكنه كان يعي الإنجيل كلَّه في ذاكرته ولا يفوته شيء منه، بل ويُنفذ كل ما جاء فيه من وصايا «كالمكتوب» تماماً. فالغفران للمسيئين والمضطهِدين لم يكن عـنـده بـالأمر الصعب، بل كان يتممه في غاية البساطة، لسبب بسيط: لأن الرب يـسـوع قـد أوصى بـهـذا. إنـه لـم يحسب نفسه أبداً أنه يقوم بعمل إيماني بطولي، بل وقلَّما نسي ماضيه الأسيف.

فـقـد عـبَّـر لي يوماً ما عن أحاسيسه الداخلية بقوله: «أنا ذو طبيعة بشرية رديئة

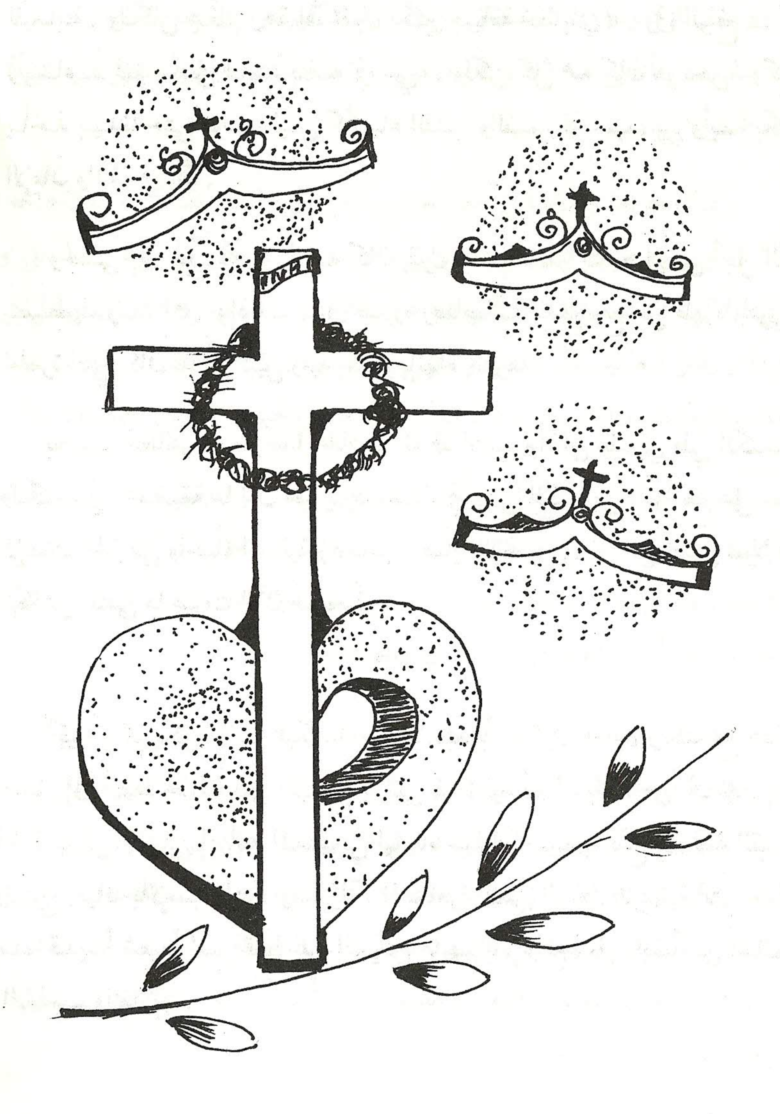
للغاية، ولكن عِظَم رحمة الله تفوق بكثير جسامة خطاياي». وفي الواقع ـــ كما رأيناه ـــ لم يكن ليهتم بنفسه في شيء، ولكن كلَّ همه كان هو نحن، وكيف يأخذ بيدنا حتى نموت، ليس كأنقياء القلب والضمير فحسب، بل وأيضاً بكامل الإيمان والثقة في الله.

وحتى إلى حين دور إعدامه كان يقول لنا: «هلموا بنا نصلي من أجل الذين يضطهدوننا!». وإذ نفذت في صدره رصاصات المدفع وقع على ظهره وهوِيَ في الحفرة التي كان قد أُمِرَ قُبَيْلَ رميه بقليل بإنهاء خفرها.

بحسب الظاهر، يبدو هذا الحادث أنه قد انتهى وأُغلق عليه في طي الكتمان. ولكنه في الحقيقة ما زال حيًّا يتردد صداه في وعي الكثيرين محفِّزاً لهم على معرفة الإيمان الحقيقي والحياة العملية (بحسب وصايا الإنجيل)، أما عن نفسي فلولا هذا الكاهن التقي ما صرت الآن مسيحياً.

* * *

أكيداً، لم يكن الأب أليكساندر مجرماً متعدياً القانون العام، ولكنه مع هذا قد وصل إلى أحط حالة من البؤس يرثى لها! بَيْدَ أنه لم يلبث فوراً أن نهض من الحضيض ووعى إيمانه المسيحي ليحياه عملياً، حيث به يبلغ إلى قمة القداسة وتُتوج حياته بالإستشهاد... وهذا يُذكّرنا بمغامرة اللص اليمين الإيمانية التي جعلت منه قديساً شفيعاً ليس فقط عن المحكوم عليهم بالإعدام، بل وأيضاً عن القائمين بالتعذيب والقاتلين.



الشهداء ليديا وكيرلس وألكسي

□✿□✿□

- إن الشهادة باسم المسيح لا تكف... وفي عصرنا الحالي الذي نعيش فيه قدَّم مؤمنون كثيرون في أنحاء شتى من العالم ثمن شهادتهم واعترافهم بالدم.
- وأعظم حالات الشهادة بالدم في القرن العشرين كانت خلال الثورة الشيوعية في روسيا التي قامت عام ١٩١٧ في وجه القياصرة ونظامهم الملكي.
- ففي أعقاب الثورة الشيوعية (١٩١٧ـــ١٩١٨)، أعاد النظام الشيوعي منصب البطريرك الذي كان قد ألغاه القياصرة قبل ذلك بحوالي ٢٠٠ عام، ولكن عودته كانت مقابل حملة شعواء على الدين قادها رجال الثورة الشيوعية وتوَّجوها باضطهاد رسمي بشع على المؤمنين والكنائس، حتى إن ستالين أعلن عام ١٩٢٣ عن الخطة الخمسية الإلحادية التي تنبأ فيها بأنه «بعد خمس سنوات لن يعود يذكر اسم الله في كل أنحاء الدولة». لكن مسعاه خاب لأن شهداء الإيمان رووا مرة أخرى بذار الكنيسة في روسيا، وما زال اسم الله ينادَى به في كل مكان حتى اليوم، وإن كان مع معاناة واضطهادات.
- وقد عانى الشعب الروسي المؤمن من اضطهاد شنيع بلغ فيه عدد الشهداء بالملايين من المسيحيين الأبرياء، وبهذا حققوا نبوة آخر قديس روسي، وهو القديس سيرافيم، الذي تنيح قبل قيام الثورة بحوالي ٨٤ عاماً، بأنه «سيأتي وقت تعجز فيه الملائكة عن استقبال هذا العدد الهائل من النفوس إلى السماء»!
- ومن بين الأسماء اللامعة في تاريخ شهداء الكنيسة في العصر الحديث: «الشهيدة ليديا والشهيدان كيرلس وألكسي».

✿✿✿

سيرة الشهيدة ليديا

●●●

الشهيدة ليديا هي ابنة كاهن في مدينة «أوفا»، وهي مدينة كبرى في غرب الأُورال. وكانت وهي طفلة رقيقة الخلق، رحيمة، ذات قلب ملائكي، سريعة التجاوب، محبوبة، متدينة، ينضح وجهها بروحها الطاهرة. تحفظت بمخافة الله من كل نوع من أنواع الخطية والإثم.

وحينما بلغت من العمر التاسعة عشرة تزوجت، ولكن سرعان ما فقدت زوجها في الحرب الأهلية. وكما يتذكر الذين عرفوها، فإنهم يقررون أنها بقيت مترملة: في عفاف وصبر وتكريس لله.

وفي عام ١٩٢٢ بدأ الاضطهاد على الكنيسة، وضعف أبوها الكاهن أمام الاضطهاد، فهال الأمر ليديا وتقدمت إلى أبيها قائلة:

ـ «باركني يا أبي، فإني سأتركك لئلا أكون عائقاً لك في خلاص نفسك».

أما الكاهن الشيخ فلعلمه بفساد ما صنعه فهم ما تقصده ابنته من قولها هذا؛ فبدأ يصرخ، و بينما هو يبارك ابنته قال لها وكأنه يتنبأ:

ـ «يا ابنتي، حينما يكللك الرب، أخبريه بأني أنا نفسي بالرغم من عدم استطاعتي الصمود أمام الاضطهاد لكني لم أمنعك، بل بالحري باركتكِ فيما تفعلين».

فردت عليه ليديا:

ــ «سوف أفعل ذلك، يا أبي»، وقبّلت يده.

وذهبت ليديا تعمل كسكرتيرة في «مصلحة الغابات»، التي كانت تشغل مبنى المعهد اللاهوتي الذي استولت عليه الحكومة. و بينما هي هناك بدأت تنقذ القطع والأواني المقدسة الموجودة بكنيسة المعهد، والتي حوّلها الملحدون أيضاً إلى نادٍ قومي.

وفي عام ١٩٢٦، نُقلت ليديا إلى قسم آخر من المصلحة كان عليها أن تتعامل فيه مع الطبقات الدنيا من العمال. فأحبتهم ليديا وعطفت عليهم وتعاطفت مع أوضاعهم البائسة، و بادلها العمال نفس التعاطف. و بدأ هؤلاء العمال من قاطعي الخشب وسائقي الكراكات ذوي الخلق الخشن والفظ والمثقلين بالأعمال الشاقة، بدأوا يختبرون شعوراً غامضاً كان ينتابهم قديماً أثناء زفة أيقونة العذراء والدة الإله التي تعودوا أن يحملوها عادة قبل الثورة. و بعد أن كانوا يحلفون و يتشاجرون و يصيحون في مكتب ليديا، أصبح هؤلاء الرجال في غاية اللطف كل واحد مع الآخر. وقد صار هذا معروفاً ومثيراً للدهشة لدى الجميع بما فيهم قيادة الحزب. ووُضعت ليديا تحت المراقبة، لكنهم لم يجدوا فيها ما يستدعي المساءلة. ولم تكن ليديا تذهب إلى الكنائس الظاهرة المعروفة في البلدة؛ بل كانت تذهب إلى الكنائس السرية التي تُعقد خفية.

و بدأ رجال المخابرات السوفيتية يشكّون في وجود كنائس سرية في هذه الإيبارشية، لكنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوها أو يصادروها.

ثم عمدوا إلى حيلة، إذ أفرجوا عن الأسقف الوقور أندريا. وكانوا يتوقعون أن

المؤمنين سوف يتركون حذرهم في غمرة فرحهم بأنهم سوف يرون أسقفهم. لكن الأسقف أندريا فطن إلى هذه الحيلة وكان يتصرف بحكمة واتضاع شديدين، ولجأ إلى كنيسة في قرية صغيرة كانت معروفة لدى رجال المخابرات. وكان المؤمنون من الكنائس الأخرى يتحاشون مقابلته علناً، ولكن كانوا يلتقون به في منزل صغير يقيم به قيِّم الكنيسة حيث كان يقوِّي إيمانهم ضد تهجمات الملحدين.

أما ليديا فاستطاعت أن تلتقي بالأسقف أندريا لمدة ساعة في أحد الأيام. لكنها لم تعلن هذا اللقاء لأحد، ولا الأسقف أعلنه لأي أحد. إلا في حالة واحدة حينما بدأ أحد الكهنة الشبان ينتقد والد ليديا، فقد اعترض الأسقف عليه قائلاً له:

ــ «إن لهذا الأب محامياً قوياً أمام الله في شخص المباركة ليديا».

ولما تأكد لدى المخابرات السوفيتية فشل خططهم، عادوا وقبضوا على الأسقف أندريا مرة أخرى. وكتبت ليديا على ظهر صورة فوتوغرافية له: «لقد اعتُقلتَ بدون وجه حق يا أبانا القديس و بعدتَ عن رعيتك؛ لقد تعوَّدتَ على الآلام والسجن الرهيب». هذه الصورة مع الكلمات المكتوبة عليها، بقيت بحسب إرادة الرب، وأخذها العمال قاطعو الأخشاب ليحفظوها في الكنيسة السرية كأثر مقدس كان يذكِّرهم فيما بعد بالشهيدة ليديا والمعترف أندريا.

* * *

وقُبض على ليديا يوم ٩ يوليو سنة ١٩٢٨. إذ كانت الشرطة السرية تبحث لمدة طويلة عن شخص يطبع على الآلة الكاتبة نشرات توزَّع على قاطعي الخشب في مصلحة الغابات تحوي سير القديسين وصلوات الكنيسة وعظات آباء الكنيسة

القدامى والمعاصرين. وقد لاحظ رجال الشرطة أن هناك حرفاً ناقصاً في هذه الآلة الكاتبة هو K. ولأنه لم يكن آنذاك أية آلات كاتبة مملوكة للأفراد، فلم يجدوا صعوبة في مراجعة كل الآلات الكاتبة في المصالح الحكومية. وهكذا اكتشفوا ليديا. وتحقق هؤلاء الرجال أنهم وجدوا في ليديا المفتاح إلى كل أخبار الكنائس السرية، فلم يدخروا وسعاً ولا حيلة ليحصلوا منها على المعلومات.

ولم تسفر شيئاً مساءلة ليديا لمدة عشرة أيام متواصلة، إذ كانت ببساطة ترفض الرد على أسئلتهم. وفي يوم ٢٠ يوليو قام المحقق الغاضب بتسليم ليديا إلى أيدي «الفرقة الخاصة» لمزيد من التحقيق معها داخل زنزانة التعذيب.

* * *

وفي اليوم المحدد لإدخال ليديا إلى هذه الزنزانة، كان الجندي المكلف بالحراسة هو «كيرلس أتائيف»، وكان يبلغ من العمر الثالثة والعشرين. فرأى ليديا في ممر السجن وهي في تمام الإنهيار بسبب مواصلة التحقيق معها لمدة عشرة أيام، فلم يكن لها طاقة على النزول وحدها على السلالم المؤدية إلى زنزانة التعذيب. فأمروا كيرلس بمعاونتها. فقالت له ليديا:

ـ «ليت المسيح يخلِّصك»، لأنها وجدت منه لطفاً وشفقة نحوها وهو يسند جسدها الضعيف.

وخلَّص المسيح كيرلس.

إن كلمات الفتاة الشهيدة مع عينيها الممتلئتين بالألم والحيرة اخترقتا قلبه. ولم يعد يستطيع أن يتحمل طويلاً سماع صراخها ونواحها المستمرين من وراء الباب كما تعوَّد أن يحتمل صراخ باقي المساجين من قبل. لقد كانوا يعذبون ليديا

لمدة طويلة. وكان رجال الشرطة السرية يختارون أنواعاً من التعذيب لا تترك أثراً ملحوظاً على جسم الإنسان، لكنهم مع ليديا لم يراعوا حتى هذه القاعدة.

وظل الصراخ والنحيب لمدة ساعة ونصف بدون انقطاع، ثم سأل الجلادون الفتاة الصامدة:

— «أليس هذا مؤلماً؟ أليس كذلك؟ ها أنتِ تصرخين وتتوجعين من الألم. أليس كذلك»؟

وردَّت ليديا متأوهة:

— «نعم، إنه مؤلم. يا رب، كم هو مؤلم ذلك»!

فرد الجلادون في حيرة:

— «إذن، لماذا لا تتكلمين؟ إنه سيكون أكثر ألماً إن لم تتكلمي».

— «لا، لن أقول شيئاً، لن أقول، إنه لا يسمح».

— «مَنْ هو الذي لا يسمح»؟

— «الله لا يسمح».

* * *

استشهاد كيرلس وألكسي

■■■

وبدأ الجلادون يلجأون إلى نوع آخر من التعذيب يستدعي وجود خمسة أشخاص، أما هم فكانوا أربعة فقط. فنادوا على الجندي «كيرلس». ولما دخل

الزنزانة ورأى ليديا، فهم للتوما نوع العذاب الذي سوف يذيقونه لها، وفهم أيضاً لماذا نادوا عليه. وفجأة ثارت نفسه على هذا الفعل الشيطاني، وتملكته غيرة مقدسة. وغالباً وهو في غيبة عن وعيه لما يفعله، هاجم اثنين من الجلادين كانا واقفين أمامه وألقاهما صرعى على الأرض. وفي لحظة هجم الجنديان الآخران عليه وشجا رأسه بكعب البندقية؛ ووقع كيرلس على الأرض ورأسه عند قدمي ليديا مضرجة بالدماء. وأنعم عليه الرب أن يسمع من فم الشهيدة كلمات الرجاء قبل أن يموت. فوجّه نظره تجاه عيني ليديا وتمتم وهو مضرج بدمائه بكلمات الإتحاد مع المسيح:

ــ «أيتها القديسة، خذيني معك...».

فردّت عليه بابتسامة:

ــ «سآخذك».

وكانت كلمات الحوار ونغمة الحديث تنبيء وكأن الباب قد فُتح على العالم الآخر أمام الجنديين الآخرين؛ وإذ أخذهما الرعب بدآ يطلقان النار على الغريمين كيرلس وليديا. وهما يصرخان بجنون (أي الجنديان) إذ تملكهما فزع غير معروف.

وذهب أحد هذين الجنديين ليحكي القصة لرفيق له اسمه «ألكسي» كان بدرجة «رقيب». فحوّلت القصة قلب ألكسي وعاد إلى الإيمان بالمسيح.

وسرد ألكسي بدوره قصة ليديا وكيرلس على الكنيسة، وصار هو نفسه شهيداً بسبب غيرته وتماديه في إذاعة هذا الخبر. وصار الشهداء الثلاثة ليديا وكيرلس وألكسي شهداء قديسين في الكنيسة الروسية في عصرها الحديث.



ـ المجرم والقديس مشتركان في أنهما لم يكونا من النوعية الفاترة التي يتقيأها الرب من فمه...

وفي هذه القصة: كاهن كان لصاً يمينياً، أي كانت حياته قبل دخوله السجن لا تليق أبداً ككاهن. لكنه صعد إلى قمم البطولة الإيمانية والقداسة، ثم مات شاهداً لإيمانه المسيحي.

ـ وأيضاً سيرة أسماء لامعة في تاريخ شهداء الكنيسة في العصر الحديث: ليديا وكيرلس وألكسي.